القسم الثالث فى المسلمين

الإسلام اليوم أو الاحتجاج بالمسلمين على الإسلام
المقال الرابع لذلك الإمام الحكيم

ربما يسأل سائل فيقول: سلمنا أن طبيعة الإسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقى، وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ولا إحراق ولا شنق لحملة العلوم الكونية، ومقوّمى العقول البشرية، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية، والفنون العصرية، أوَليس الناس تبعًا لهم؟ أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله؟ ألم يسمع بأن رجلاً فى بلاد إسلامية غير البلاد المصرية كتب مقالاً فى الاجتهاد والتقليد وذهب فيه إلى ما ذهب إليه أئمة المسلمين كافة، ومقالاً بَيَّنَ فيه رأيه فى مذهب الصوفية وقال: إنه ليس مما انتفع به الإسلام بل قد يكون مما رزئ به أو ما يقرب من هذا وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله، فلما طبع مقاله فى مصر تحت اسمه هاج عليه حَمَلَةُ العمائم، وسَكَنَةُ الأثواب العَباعِب، وقالوا: إنه مرق من الدين، أو جاء بالإفك المبين، ثم رفع أمره إلى الوالى فقبض عليه وألقاه فى السجن. فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلف عليه بين يدى عادل لا يجور،

ومهيمن على الحق لا يحيف، إلخ ما يقال فى الشكوى. فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله فقد صدر الأمر هناك أيضًا بسجنه ولم يعف عنه إلا بعد أشهر مع أنه لم يَقُل إلا ما يتفق مع أصول الدين ولا ينكره القارئ والكاتب، ولا الآكل والشارب.

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى (والد السنوسى صاحب الجغبوب) كتب كتابًا فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية، وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين. فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها ؛ لأنه خرق حرمة الدين، واتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين، وربما كان يجترئ الأستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه وإنما الذى خَلَّصَ السنوسى من الطعنة، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة، هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكى.

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر فى الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الأذيال الواسعة الأردان فى استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافيا) بين العلوم التى يتلقاها طلبة الجامع الأزهر؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون علوم الدين. أم لم تنشر فى العام الماضى فصول بأقلام بعضهم تشير إلى الطعن فى عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به مع أنه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولاً يبعد من الكتاب والسنة؟

ألم تحمل إلينا الرواة ما عند علماء الأفغان و الهند والعجم من شدة التمسك بالقديم، والحرص على ما ورثوا عن آبائهم الأقربين. وإقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم أصبعًا عما كان عليه سلفهم، وإن كان فى البقاء عليه تلفهم. وما عليه الحال اليوم فى حكومة المغرب من الغلوّ فى التعصب والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء فى شرب الدخان أو بالقتل فى كلمة ينكرها السامعون. وإن أجمع عليها المسلمون الآخرون.

ثم ألا يتخيل المؤمل أنه يسمع من جوف المستقبل صَخَبًا ولَجَبًا وضوضاء وجَلَبَةً. وهَيْعاتٍ مضطربة. إذا قيل إنه ينبغى لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفًا من مبادئ الطبيعة أو يُحَصِّلُوا جملة من التاريخ الطبيعي؟ ألا تقوم قيامة المتقين. ألا يصيحون أكتعين أبتعين: هذا عدوان على الدين. هذا توهين لعقده المتين. هذا تغرير بأهله المساكين. ولا يزالون يشيرون بهذا إلى أن لا يبقى شيء عرف له اسم فى اللغة إلا ألصقوه بهذه البدعة فى زعمهم.

هل هذه الحال جديدة على المسلمين حتى يقال: إنها عارض عرض عليهم. أو مرض من الأمراض الوافدة إليهم؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم خصوصًا عندما يجد الوحدة فى الصفات. والشمول فى جميع الاعتبارات. فلو أخذ مسلمًا من شاطئ الأطلانطيق وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الزخرف آية ٢٢. وكلهم أعداء لكل مخالف لما

هــم عليه وإن نطق به الكتاب واجتمعت عليه الآثار. اللهم إلا فئة قليلة زعمت أنها نفضت غبار التقليد وأزالت الحُجُبَ التى كانت تحول بينها وبــين النظر فى آيات القرآن ومتــون الأحاديث لتفهم أحكام الله منها. ولكــن هذه الفئة أضيق عطنًا وأحرج صدرًا من المقلّدين وإن أنكرت كثيرًا من البدع ونحّت عن الدين كثيرًا مما أضيف إليه وليس منه. فإنها ترى وجــوب الأخذ بما يفهم من لفظ الــوارد. والتقيد به بدون التفات إلى ما تقتضيــه الأصول التى قام عليهــا الدين. وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدينة السليمة أحبّاء.

هــل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء فى فهمها، وإذا عرضت حادثة مــن الحــوادث ولم يكن لمصنف معــروف رأى فيها أحجمــوا عن إبداء الــرأى واجتهدوا فى تحويلها عن حقيقتها إلى أن تتفق مع قول معروف فــى كتاب من الكتب حتى لقد جاء طالــب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الأروقة فى الجامع الأزهر فوقع الشــكل هل بلده مما لأهله استحقاق فى ذلك الرواق على حسب نص الواقف؟

فقال قائل لشيخ الرواق: إن كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل فى شــرط الواقف. فقال: إننى لا أقنع بمــا فى تلك الكتب وإنما الذى يصــح أن آخذ به هو أن يكــون فقيه (ممن مات) قال: إن هذه البلد من قطر كذا وهو الذى وقف الواقف على أهله. وإذا قيل لأحدهم: إن الأئمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولاً لبيان ما يحويه كل قطــر وبيان الحدود التى ينتهى إليها، وإن أصول ديننا تســمح لنا بأن

نأخذ بأقوال العلماء فى هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال: إنما أريد نصًّا فقهيًّا، لا دليلاً عقليًّا.

وإذا قيل لهم: اختلت الشئون، وفسدت الملكات والظنون، وساءت أعمال الناس، وضلت عقائدهم، وخوت عباداتهم من روح الإخلاص، فوثب بعضهم على بعض بالشر، وغالت أكثرهم أغوال الفقر، فتضعضعت القوة، واخترق السياج، وضاعت البيضة، وانقلبت العزة ذلة، والهداية ضلة، وساكنتكم الحاجة، وألفتكم الضرورة، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس، فهلا نبهكم ذلك إلى البحث فى أسباب ما كان سلفكم عليه، ثم علل ما صرتم وصار الناس إليه - قالوا: ذلك ليس إلينا، ولا فرضه الله علينا، وإنما هو للحكام ينظرون فيه، ويبحثون عن وسائل تلافيه، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا، فذلك لأنه آخر الزمان وقد ورد فى الأخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة وأن الإسلام لا بد أن يرفع من الأرض ولا تقوم القيامة إلى على لُكَع ابن لكع. واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل، ولا تدع فى نفس حركة إلى عمل.

○○○

رأى رنان فى الإسلام

هذا الجمود - الذى لو أردنا بيان ما امتد إليه من طيَّات الأفكار وثنيات الوجدان لكتبنا فيه كتابًا - هو الذى حمل الموسيو رنان الفيلسوف الفرنسى المشهور أن يقول فى عرض كلام له فى تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة: (على أننى أخشى أن يثبت الدين الإسلامى

وحده فى وجه هذا التسامح العام فى العقائد ولكننى أعرف أن فى نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الإسلامى القديمة وفى بضعة من رجال الآستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال إلى المسالمة. إلا أننى أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء فإذا اختنقت قضى على الدين الإسلامى. ذلك أنه من الثابت الآن أمران – الأول أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرة، لأنها تصلح أن تكون وسيلة إليه. والثانى: أنه لا يطيق أن تكون الأديان عثرة فى سبيله. فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلين وإلا كان موتها ضربة لازب). اهـ كلام رينان بتصرف لفظى قليل.

فمن أين يكون هذا الجمود العام الذى سمح للطاعنين أن يحكموا على الإسلام بأنه عثرة فى طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحًا فى سعيهم، أو نجاحًا فى أعمالهم. من أين يكون هذه الجمود إن لم يكن من طبيعة الدين؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئًا من أصول الدين؟ فإن لم تسلم بأن هذا اضطهاد من لوازم الدين الإسلامى فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه، أو استهجان له أو احتقار لشأنه، وأحد هذه الأمور كافٍ إذا عم بين المسلمين فى أن ينفر بهم عن كل مجد، وأن يحرمهم كل نفع، وأن يحقق فيهم ما تنبأ به رنان وغيره فما قولك فى هذا؟؟

الجواب عن الاحتجاج

أقول هذا كلام فيه شِيَة من الحق، ولمعة من الصدق، أما ما نسمعه حولنا من سَجن مَن قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين فإنَّ حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغَيْرة. وأما صدور الأمر

بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد فتنتشر عدواه فينتبه غافل آخر ويتبعه ثالث، ثم ربما تسرى العدوى من الدين إلى غير الدين - إلى آخر ما يكون من حرّية الفكر يعوذون بالله منها. فإن شئت أن تقول: إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين. أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة، ومن كل حرف يُلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالى من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يُجَنُّ أو يعقل فى السياسة، ومن ساس ويسوس، وسائس ومسوس، يدلك على أن العقوبة سياسة أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين. لا تقل: إن هذه السياسة من الدين، فإنى أُشْهِدُ الله ورسله وملائكته وسلفنا أجمعين، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين، كأنها الشجرة التى تخرج فى أصل الجحيم، ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ سورة الصافات آيات ٦٥ - ٧٠.

○○○

جمود المسلمين وأسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب إلى الإسلام وقد رأيت صورة الإسلام فى صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح أن

يكون أصلاً يرجع إليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رينان) وغيره. وإنما هى علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام فى أفئدتهم. وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم هو السياسة، كذلك هو تلك الشجرة الملعونة فى القرآن عبادة الهوى واتباع خُطُوات الشيطان هو السياسة.

لم أرَ كالإسلام دينًا حفظ أصله، وخلط فيه أهله، ولا مثله سلطانًا تفرق عنه جنده، وخُفِر عهده، وكُفِر وعيده ووعده ؛ وخَفِي على الغافلين قصده، وإن وضح للناظرين رشده، أكل الزمان أهله الأولين، وأدال منهم خُشَارة من الآخرين، لا هم فهموه فأقاموه، ولا هم رحموه فتركوه، سواسية من الناس اتصلوا به، ووصلوا نسبهم بسببه، وقالوا نحن أهله وعشيرته، وحماته وعصبته، وهم ليسوا منه فى شيء إلا كما يكون الجهل من العلم، والطيش من الحلم، وأفَنُ الرأى من صحة الحكم.

انظر كيف صارت مزية من مزايا الإسلام سببًا فيما صار إليه أهله. كان الإسلام دينًا عربيًا ثم لحقه العلم فصار علمًا عربيًا بعد أن كان يونانيًا، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيرًا له. ظن أن الجيش العربى قد يكون عونًا لخليفة علوى ؛ لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم. فأراد أن يتخذ له جيشًا أجنبيًا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه، ويصطنعها بإحسانه. فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك. وفى سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك. هنالك استعجم الإسلام وانقلب عجميًا.

خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه وبئس ما صنع بأمته ودينه: أكثرَ من ذلك الجند الأجنبى وأقام عليه الرؤساء منه، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة فى قبضتهم ولم يكن لهم ذلك العقل الذى يرضاه الإسلام والقلب الذى هذبه الدين. بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم. لبسوا الإسلام على أبدانهم، ولم ينفذ منه شىء إلى وجدانهم، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده فى خلوته، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته، ثم عدا على الإسلام آخرون كالتتار وغيرهم. ومنهم من تولى أمره، أى عدو لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرّف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم؟ فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم. أما العلم فلم يحفلوا بأهله، وقبضوا عنه يد المعونة وحملوا كثيرًا من أعوانهم أن يندرجوا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ليُعدُّوا من قبيلة، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه. ودخَلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين. زعموا الدين ناقصًا ليكملوه، أو مريضًا ليعلِّلوه، أو متداعيًا ليدعموه؛ أو يكاد ينقضّ ليقيموه.

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية، فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو بَرَاءٌ منه لكنهم نجحوا فى إقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره، وتفخيم أوامره، والغوغاء عون الغاشم، وهم يد الظالم، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات وتلك الاجتماعات، وَسَنّوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم

مـا فرق الجماعة وأركـس الناس فى الضلالة، وقـرروا أن المتأخر ليس لـه أن يقول بغـير ما يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول. ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسـلامية ينشـرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم فى الشؤون العامة، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعينه، وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال، ليس من صنع الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان. وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مآل. وأن الأسلم تفويض ذلك لله. وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه. ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك وفى الموضوعات والضعاف ما شـد أزرهم فى بث هذه الأوهام. وقد انتشـر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين وتعاون ولاة الشـر على مسـاعدتهم فى جميع الأطراف، واتخـذوا من عقيدة القدر مثبطًا للعزائم وغلاً للأيدى عن العمل. والعامل الأقـوى فى حمـل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السـذاجة وضعف البصيرة فى الديـن وموافقة الهوى. أمور إذا اجتمعت أهلكت، فاسـتتر الحق تحت ظلام الباطل ورسـخ فى نفوس النـاس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال.

هذه السياسـة سياسـة الظلمة وأهل الأثرة هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه وسـلبت من المسـلم أملاً كان يخترق به أطباق السـماوات، وأخلدت به إلى يأس يجـاور به العجماوات، فجلّ ما تراد

الآن مما تسميه إسلامًا فهو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج وقليل من الأقوال التى حرفت عن معانيها. ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذى ذكرته وعدوه دينا. نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه. فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام وإنما هو شيء آخر سموه إسلامًا. والقرآن شاهد صادق ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ سورة فصلت آية ٤٢، يشهد بأنهم كاذبون، وأنهم عنه لاهون. وعما جاء به معرضون. وسنوفى لك الكلام فى مفاسد هذا الجمود نثبت أنه علة لا بد أن تزول.

○○○

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه، وولوع شهواتهم بالدفاع عنه، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها وإنما يحسن إجمال القول فيها. كان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ويسيح به فى الأرض ويصعد به إلى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سرًا من أسراره فى خليقته، أو يستنبط حكمًا من أحكام شريعته. فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء وتبلغ من التَّمَتُّع بها ما تريد، فلما وقف الدين، وقعد طلاب اليقين، وقف العلم وسكنت ريحه، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج.

جناية الجمود على اللغة:

أول جنايـة لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأسـاليبها وآدابها فإن القوم كانوا يُعنون بها لحاجة دينهم إليها - أريد حاجتهم فى فهم كتابهم إلى معرفة دقائق أساليبها - وما تشير إليه هيئة تركيبها. وكانوا يجـدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربًا بملكاتهم. يسـاوون من كانوا عربًا بسلائقهم. فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قال المتقدم قصر المحصلـون تحصيلهم على فهم كلام مَـنْ قبلهم واكتفوا بأخذ حكم الله منـه بدون أن يرجعوا إلى دليله. ولو نظروا فى الدليل فرأوه غير دالّ له بل دالاً لخصمه بأن كان عرض له فى فهمه ما يعرض للبشـر الذين لم يقـرر الدين عصمتهم لَخَطَّأوا نظرهـم وأعموا أبصارهم وقالوا: نعوذ بالله أن تذهـب عقولنـا إلى غيب ما ذهب إليه متقدمنـا وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية. فأى حاجة له بعد ذلك إلى اللغة العربية نفسها وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون فى كلامهم.

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر فى كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الأول. بل ولا بما كان يحفّ بالقول من أحوال الزمان فهو لا ينظر إلا اللفـظ وما يعطيه فتسـقط منزلته فى تحصيـل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس إلى ما نراهم عليه اليوم. جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين فى النحو وفنون البلاغة - وإن لم يصلوا منها إلى غاية فى فهم ما وراءها - فَدَرَسَـتْ علوم الأولين وبادت صناعاتهم. بل فقدت كتب السـلف الأولين رضى الله عنهـم. وأصبح الباحث عن

كتاب المدونة لمالك – رحمه الله تعالى – أو كتاب الأم للشافعى – رحمه الله تعالى – أو بعض كتب الأمهات فى فقه الحنفية كطالب المصحف فى بيت الزنديق. تجد جزءًا من الكتاب فى قُطْر، وجزءه الآخر فى قُطْر آخر فإذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض عليها من مسخ النساخ حائلاً بينك وبين الاستفادة منها.

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت فى وجوه المتأخرين. ليرفع بذلك منازل المتقدمين، وعدم الاعتبار بما ورد فى الأخبار من أن المبلِّغ ربما كان أوعى من السامع[1] وأن هذه الأمة كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره[2] وقلة الالتفات إلى أن ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ولا حول ولا قوة إلا بالله. لا ريب أن القارئ يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ثم يكفيه من ذلك أنه إذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم ما يقول. وأى ضرر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه إلى العقول.

جناية الجمود على النظام والاجتماع:

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة وإيقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع فى الدين. كان اختلاف السلف فى الفُتْيَا يرجع إلى اختلاف أفهام الأفراد. والكل

---

(١) المنار: يشير إلى حديث ابن مسعود عند الترمذى وابن ماجه وهو: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "نضّر الله امرءًا سمع منى شيئًا فبلغه كما سمعه فرب مبلَّغ أوعى له من سامع" ورواه غيرهما عن غيره.

(٢) يشير إلى حديث أنس عند الترمذى وهو : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثَلُ أمتى مَثَلُ المطر لا يدرى أوله خير أم آخره" ورواه غيره .

يرجع إلى أصل واحد لا يختلفون فيه وهو كتاب الله وما صح من السنة فلا مذهب ولا شيعة ولا عصبية. ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لأسرع إلى موافقته كما صرح به جميعهم. ثم جاء أنصار الجمود فقالوا: يولد مولود في بيت رجل من مذهب إمام فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه إلى مذهب إمام آخر. وإذا سألتهم قالوا: (وكلهم من رسول الله ملتمس) ولكنه قول باللسان، لا أصل له في الجنان، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة لَكُنَّا اليوم في شأن غير ما نحن فيه.

يجد المطَّلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون إليه. يضلل بعضهم بعضًا ويرمي بعضهم بعضًا بالبعد عن الدين وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ولكنه الجمود، قد يؤدي إلى الجحود.

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفُتْيَا تخالف أشخاص في النظر والرأي. وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه. مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد. فلما جاء دور الجمود - دور السياسة - أخذ المتخالفون في التنطع، وأخذت الصلات تتقطع، وامتازت فِرَقٌ وتألفت شيع. كل ذلك على خلاف ما يدعو إليه الدين. وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزًا حقيقيًّا فما استطاعوا وإنما هو تمييز وهمي، وخلف في أكثر المسائل لفظي، وإنما هي الشهوات وضرب السياسات أشعلت نيران الحرب بين

المنتسبين إلى تلك الشيع حتى آل الأمر إلى هذه الفُرقة التى يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها.

قال قائل من عدة سنين: إنه ينبغى أن يعين القضاة فى مصر من أهل المذاهب الأربعة ؛ لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها. وقال: إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيرًا على الناس ودفعًا للضرر والفساد. فقام كثير من المتورعين يحوقلون ويندبون حظ الدين، كأن الطالب يطلب شيئًا ليس من الدين، مع أنه لم يطلب إلا الدين، ولم يأت إلا بما يوافق الدين، وبما كان عليه العمل فى أقطار العالم إلى ما قبل عدة سنين. فأين قول هؤلاء (وكلهم من رسول الله ملتمس)؟ لكن هو جمود المتأخر على رأى من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع إلى ما وراءه، أو هى السياسة تحلّ ما تشاء، وتحرم ما تشاء وتصحح ما تشاء، وتبطل ما تشاء، والناس منقادون إليها بأزمة الأهواء.

جناية الجمود على الشريعة وأهلها:

هذا الجمود فى أحكام الشريعة جرّ إلى عسر حمل الناس على إهمالها. كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلامًا سمحة تسع العالم بأسره وهى اليوم تضيق عن أهلها حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى إليها. وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها. صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزًا عن الوصول إلى علمها فلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلاً لا يعدّ شيئًا إذا نسب إلى من لا يعرفها.

وهـل يتصـوَّر من جاهل بشـريعة أن يعمل بأحكامهـا؟ فوقع أغلب العامة فى مخالفة شـريعتهم بل سـقط احترامها من أنفسهم . لأنهم لا يسـتطيعون أن يطبقوا أعمالهم على مقتضـى نصوصها. وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف. سـألت يومًا أحد المدرسين فى بعض المذاهب: هل تبيع وتشترى وتصرف النقود على مقتضـى ما تجد فى كتـب مذهبك؟ فأجاب أن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وإنما يفعل ما يفعل الناس. هكذا فعل الجمود بأهله ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة تحيى بها الناس لفعلوا ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء.

تعلم ما وصل إليه الناس من فسـاد الأخلاق والانحراف عن الشريعة. لو سألت عن سببه فى القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين: إما فقد العارف بالشـريعة والدين. وسـقوط القرية أو المدينة فى جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها إلى بعض فى معرفة الحلال والحرام وليس المسـئول بأعلم من السائل والكل جاهلون. وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله لاعتقال لسـانه عن حسـن التعبير بطريقة تفهمهـا العامة وعلى المتكلم إفهامها. وذلك للحرج الذى وضع فيه نفسـه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم. فإذا قلت للعارف تعلَّمْ من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك واعلُ بنفسك إلى أن تفهم الغرض من قول إمامك فتجد لأصله انطباقًا على هذه الحادثة مثلاً وإن لم يأت ذكرها بنفسها فى قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه. قال: سبحان الله: هل فعل ذلك أحد من المشايخ؟ يرى أن لا يأتى شيئًا

إلا ما أتى به شيخه الذى أخذ عنه يدًا بيد ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه فى بعض رأيه. ثـم إذا حاججته فى ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقًا وأنك تدعوه إلى الخروج من دينه ولا يدرى المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه، وأنه يتهيأ للخروج منه نعوذ بالله تعالى.

كان كلام بينى وبين أحد المدرسين فى أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائـل الأخلاق وصـالح الأعمال خصوصًا عند إلقـاء الدروس الفقهية ودروس الحديـث والتوحيد. فقال لى: إنه لا فائـدة فى ذلك قطعًا وهو تعب فى غير طائل. فقلت له: ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عـن المنكر وليس عليـك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهـى المنهى. فقال: إذا تحققت اسـتحالة المنفعة كان الأمر والنهى لغوًا. فانظر كيف اعتقد اسـتحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم. ولم ينظر فى الوسـيلة لاقتلاع هذا الفسـاد مع أن الدين يدعوه إلى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه. هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلاً لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه، أو لم يرشده إليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شـيئًا من الأوامر الإلهية التى وردت فـى النصيحة والتآمر بالمعـروف والتناهى عن المنكر، وأن اليأس من روح الله إنما يكون من القوم الكافرين أو الضالين.

لا بـل إذا قلت له: إن هذا الضـرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلـوب منه، أو إن هـذا الكتاب الذى تعوّد الطـلاب قراءته قد يضر بقارئيـه وغيرُه أفضل منه. كاد يظـن أن قولك هذا مخالفٌ للدين ورأى

العدول عمّا تعوّده نوعًا من الإخلال بالدين. وقد يقيم عليك حربًا يعتقد نفسه فيها مجاهدًا في سبيل الله إذا قلت له: إن دروس السلف كانت تقريرًا للمسائل وإملاءً للحقائق على الطلاب ولم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلامذته ولم يكن بأيدى الطلبة إلا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم. وقد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر فى عمله اعتمادًا على أنه وجد الناس هكذا يعملون. فهل يخطر ببال عاقل أن هذا الجمود من الدين؟ وهل يرتاب من له أدنى إدراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين؟

جناية الجمود على العقيدة:

ذلك جمودهم فى العمل وأشد ضررًا منه الجمود فى العقيدة. نسوا ما جاء فى الكتاب وأيدته السنة من أن الإيمان يعتمد اليقين ولا يجوز الأخذ فيه بالظن. وأن العقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة. وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيآتها. وأن العقل إن لم يستقل وحده فى إدراك ما لا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة فى الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول. نسوا ذلك كله وقالوا: لا بد من اتباع مذهب خاص فى العقيدة وافترقوا فِرقًا وتمزقوا شيعًا كما قلنا. ولم يكفهم الإلزام باتباع مذهب خاص فى نفس المعتقد بل ذهب بعضهم إلى أنه لا بد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول إلى ذلك المعتقد فيكون التقليد فى الدليل كالتقليد فى المدلول. وكأنهم لذلك جعلوا النقل عمادًا لكل اعتقاد ويا ليته النقل عن المعصوم

بـــل النقل ولو عن غـــير المعروف، فتقررت لديهم قاعـــدة أن عقيدة كذا صحيحـــة ؛ لأن كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك. ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفســـه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة. وقد ســـرى ذلك من قراء المقلدين إلى أميينهـــم فتراهـــم يعتقدون بكل ما يقال وينقل عن معروف الاســـم وإن لم يكن في حق الأمر من أهل العلم وتتناقض عقائدهم على حســـب تناقض مسموعاتهم.

انجرَّ التســـاهل في الاعتمـــاد على النقل إلى الخـــروج عما اختطه لنا الســـلف – رضـــي الله عنهم – فقد كانوا ينقبـــون عن صفات من ينقلون عنه ويمتحنون قوله حتى يكونوا على شـــبه اليقين من أنه موضع الثقة. ولكن جمود المتأخر على ما يصل إليه من المتقدم صير النقل فوضى فتجد كل شـــخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين إلى حين. وكل ما نراه من البدع المتجددة فمنشأه سوء الاعتقاد الذي نشأ من رداءة التقليد والجمود عند حد ما قال الولى بدون بحث في دليله ولا تحقيق في معرفة حاله وإهمال العقل في العقائد على خلاف ما يدعو إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة. دخلت على الناس لذلك عقائـــد يحتاج صاحب الغيرة على الدين في اقتلاعها من أنفسهم إلى عناء طويل وجهاد شديد، وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم ممن يعرف ومن لا يعرف. وما أكثر عدد من ينصر أعداءه اليوم، وما أقلهم غدًا إن شاء الله.

سأل سائل الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن حكم عمل من الأعمال الجارية فى المساجد يوم الجمعة – ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم بالدين منزلته – فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين، وقال: إن العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها. أتظن أن المستفتى أمكنه العمل بمقتضى الفتيا؟ كلا. حدث قيل وقال وكثرة تسآل. ودخلت السياسة ثم قيل: إن الزمان ناصر الحقيقة وقد وجدنا الأمر كذلك من قبلنا وسكت السائل وماذا يصنع المجيب. نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوجّ منها ووكلها إلى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب وقد غرسوا فى أذهان الدهماء شر الغرس ولا تجنى الأمم منه إلا أخبث الثمر. فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبيّن حكم الله المصرح به فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح فى وجهه ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ سورة المؤمنون آية ٢٤. ويريد من آبائه الأولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضلّيه حتى صار إرشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشقها على طالبه.

ماذا يمكن أن أقول؟ أصبح الرجل يرتكب فى وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين وإذا دعى إلى ترك المنكر نفر وزمجر، وأبى واستكبر، انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم فى الاستبراء من البول على مرأى من المارّة وفيهم النساء والأطفال وهم يظنون أنهم يتقربون إلى الله بما يفعلون.

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين ديناً ويصعب على حفاظ الدين إرشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل. فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من أيدى منذريه ولو شاءوا لأقبل كل منهم على صاحبه وهو أيسر شيء على حمله الشريعة وما هو إلا أن يرجعوا إلى ما كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته. ثم العمل على حفظه وحياطته.

○○○

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم أن الجمود قد أحدث لنا فريقًا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة. إما فى مدارس الحكومات الإسلامية وإما فى المدارس الأجنبية داخل بلادهن أو خارجا عنها. لا أتكلم عن هذا الفريق فى بلاد القرم أو القوقاس أو سمرقند وبخارى أو الهند فإنى لا أعرف كثيرًا من أحوالهم. ومن رأيته منهم رأيت فيه خيرًا وأرجو أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الإسلام من العارفين به فقد رأيت أفرادًا قليلين من هؤلاء تعلموا فى البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درسًا دقيقًا وهم أشد تمسكًا بلُب الدين الإسلامى وروحه من كثير ممن يدعى الورع والتقوى ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التى أورثها دينهم لقومهم. فنعم المتعلمون هؤلاء. أكثر الله منهم.

وإنما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسوريا وسائر بلاد الدولة العثمانية. سماحة الإسلام وسعة حلمه للعلم أباحت للمسلمين

أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم فى المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين بل فى مدارس لم تُبنَ إلا لترويج دين غير الدين الإسلامى. وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وأن لا ينكروا عليهم عملهم ما دامت العقيدة سالمة من الهدم والضعضعة.

جمود تلامذة المدارس الأجنبية

هؤلاء التلامذة إن كانوا فى مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الإسلامى فيها بل ربما يتعلم فيها دين آخر فقد يسرى إلى عقائدهم شىء من الضعف، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتلُ مكانها عقائد أخرى تناقضها كما شوهد ذلك مرارًا. ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الإقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال. وكيف يكون لأولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل إلى فهمها من ينقطع لتعلمها فضلاً عن أولئك المساكين. بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شىء صعبًا وكل أمر غير مستطاع.

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبية يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون. ويأليتهم يستبدلون بالدين رادعًا آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم أو كما يروّجه بعض من لايريد الخير بها، ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع اللهم إلا زاجرًا عن خير أو دافعًا إلى شر فاتخذوا إلههم هواهم وإمامهم

شهوتهم فهلكوا وأهلكوا. ومن هؤلاء ورثة الأغنياء الذين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم. فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة وليت الإسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضر من التعليم والتعلم.

جمود تلامذة المدارس الرسمية والأهلية

أما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الدينى فيها شىء من البقية. فهؤلاء يُنَشَّأون على شيء من المعارف فى الفنون المختلفة وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوى أو الأرضى أو فى الاجتماع الإنسانى ومن عرف شيئًا انطلق لسانه بالخوض فيه وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها. فلو سمع غيرها أنكره وظنه مخالفًا للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ويرميه بالمروق من الدين. هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليله ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه فينفر من دينه نفرته من الجهل. ولو قال له قائل: ارجع إلى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وخصمك. حار لا يدرى إلى أى كتاب يرجع ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم على ما فيها من تشتيت وتعقيد وأبقوها ما ورثوها. فيعود إلى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه.

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء أن الدين شىء غير مفهوم بل قد يعده بعضهم خرافة (نعوذ بالله) فيأخذون عنه جانبًا ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ويلتمسون لهم آدابًا فى غيره وقلما يجدونها فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم فلا يطلبون إلا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو

علوّ جاه ويسلكون إلى ذلك أى طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة (ما دام الشرف محفوظًا) فإذا وجد بينهم من يدعى الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك فإنما ينثر الألفاظ نثرًا لا يرجع فيها إلى أصل ثابت، ولا إلى علم صحيح ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذى يؤدى إلى المفسدة وهو يشعر أو لا يشعر على حسب حاله. ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه. أو درس عقيدة من عقائده فشأنهم كلام فى كلام ولبئس ما يصنعون. ولولا هذا الجمود لوجدوا فى كتب دينهم وفى أقوال حَمَلَتهِ ما تبتهج به قلوبهم، وتطمئن إليه نفوسهم، ولذاقوا طعم العلم مأدومًا بالدين وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة يرجع إليها فى سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية.

○○○